من آيات الله

فى الطير

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

إن المؤمن المتفكر فى ملكوت الله، وما خلق الله من إنسان وحيوان، وما رفع من سماء، وما مهد من أرض، وما بث فيها من كل خلق، لابد أن يدرك بالفطرة السليمة، والعقل الواعى المدرك، بأن هذا من خلق من لا يخلق، وإن الخالق واحد أحد، حى قيوم ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لا يعزب عن علمه شئ فى السماء ولا فى الأرض.

إن فى آيات الله فى الإنسان والحيوان والطير وكل شئ لآيات باهرات، آيات للمبصرين بعيونهم، والمبصرين بعقولهم وأفهامهم.

والنظر إلى ما فى السموات والأرض يمد عقل المؤمن وقلبه بزاد من المشاعر والتأملات وزادٍ من الاستجابات والتأثرات، وَقَدرٍ من سعة الشعور بالوجود، ومن التعاطف مع هذا الوجود، فيزداد إيمانه بوجود الله، وجلاله، وتدبيره، وسلطانه، وحكمته، وعلمه.

والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله فى السموات وفى الأرض، وفى الآفاق وفى الأنفس. والمؤمنون هم الذين يدركون آيات الله، بوعى، ومشاعر، وبصائر. قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٤].

وقوله تعالى: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ هو إشارة إلى آية من آيات الله، خارج كيان الإنسان، وعالمه الداخلى.

فإذا لم يكن فى الإنسان نظر يرى به ما بداخل كيانه كما يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] فليقم نظره على هذا العالم الخارجى، وليوجه مدار نظره على هذا الطير السابح فى السماء، الصَّافِّ بأجنحته على هذا العالم الأثيرى، وليسأل نفسه، من يُمْسِك هذا الطير أن يقع على الأرض؟ ومن أعطاه تلك القدرة التى يقهر بها جاذبية الأرض، ويخرج بها عن سلطان هذه الجاذبية، فلا يسقط كما يسقط الإنسان العاقل إذا هوى من فوق شجرة أو دابة مثلاً.

﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات﴾ أى ألم ينظروا إلى الطير حال كونها مسخرات، أى مذللات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة، وسائر الأسباب المواتية لذلك، كرقة قوام الهواء، والهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح فى الماء. وقوله تعالى: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء﴾ جو السماء أى فى الهواء المتباعد من الأرض، فى سمت العلو، وإضافته إلى السماء لكونه فى جانبها.

ومشهد الطير مسخرات فى جو السماء، مشهد مكرر. قد ذهبت الألفة بما فيه من عجب، وما يتلفت القلب البشرى عليه إلا حين يستيقظ، ويلحظ الكون بعين الشاعر الموهوب. وإن تحليقة طائرٍ فى جو السماء، لتستجيش الحس الشاعر إلى القصيده حين تلمسه، فينتفض للمشهد القديم الجديد.

﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله﴾ أى ما يمسكهن فى الجو عن الوقوع إلا الله عز وجل، بقدرته الواسعة، ونواميسه التى أودعها فطرة الطير، وفطرة الكون من حولها، وجعل الطير قادرة على الطيران، وجعل الجو من حولها مناسباً لهذا الطيران، وقد كان فى ثقل أجساد الطير، ورقة الهواء ما يقتضى وقوعها، إذ لا علاّقة من فوقها، ولا دعامة من تحتها، لأنها لم تتعلق بشئ من فوقها، ولا اعتمدت على شئ تحتها، ولو سلبها رب العزة ما أعطاها من قوة الطيران، لم تَقْدِر على النهوض ارتفاعاً. وقد كان العلماء قديماً يعلمون

تخلخل الهواء فى الطبقات العالية فى الجو، وهى نظرية لم تُدْرَسْ فى العلوم الطبيعية إلا حديثاً.

فقد أُثر عن بعض العلماء أنه قال: إن الطير يرتفع فى الجو اثنى عشر ميلاً ولا يرتفع فوق ذلك.

إن القدرة القادرة- قدرة الحكيم العليم- هى التى تُمسِكُ بهذا الطير السابح أو الصَّافِّ على موج الأثير فى جو السماء.

أليس فى هذا آية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟ بلى إنها لأية لقوم لا يمكرون بآيات الله، ولا يخونون أنفسهم بما تحدثهم به من الحق، فينكرونه فى عناد ومكابرة.

﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾ إن فى ذلك التسخير فى الجو والإمساك فيه، على تلك الصفة لآيات ظاهرات، تدل على وحدانية الله سبحانه، وقدرته الباهرة لمن يؤمنُ باللَّهِ، وَيُقِرُ بِوِجْدَانِ ما تُعَايِنُه أبصارُهم وَتَحُسُّهُ حواسهم.

والقلب المؤمن هو القلبُ الشاعر، ببدائع الخلق، والتكوين، المدرك لما فيها من روعة باهرة، تهز المشاعر، وتستجيش الضمائر. وهو يعبر عن إحساسه بروعة الخلق، بالإيمان، والعبادة، والتسبيح.

إن لحظة تأمل فى الطائر السابح في الفضاء لحظة واحدة، يتسمع فيها القلب البشرى إلى إيقاعات هذه الوجود العجيب. إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستجيب.

ومما يَحْسُنُ أن نلحظه أن عرض القرآن الكريم لمشاهد الكون لم يكن مقصوداً لذاته، وإنما كان نقطة انطلاق لغاية وراء تلك المشاهد والآيات، وهى نقل الإنسان عن طريق التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض إلى الإيمان بالله وقد اقترنت المشاهد والآيات غالباً بالألفاظ الدالة على الحواس والتفكير، من نحو الرؤية، والنظر، والسماع، والإبصار، والتبصير.

وعندما يتلقى الإنسان منهجه عن ربه، تتحدد علاقته بالكون من حوله، فيدركُ أن كل ما فى الكون مسخر بأمر الله، وما على الإنسان إلا أن يستفيد من هذا التسخير بمقدار ما يتسع له إدراكه وعلمه.

وليس التفكر، والانتفاع، والاستمتاع، غايةً فى ذاته إنما هو نقطة الانطلاق للوصول إلى الخالق المبدع، فالإنسان عن طريق التفكر، والتأمل فى آفاق الكون يصل إلى مبدعه.

* * *